المظهر التجاري لمدن المغرب الأوسط طبنة مدينة الزاب أنموذجا.

ط.د/ سجية بوساق/ جامعة قسنطينة 2.

أ.د /يوسف عابد جامعة/ الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية.

bsadjya@gmail.com

الملخص باللغة العربية:

مما لا شك فيه أن تأسيس المدن في المغرب الأوسط كان مؤشرا حضاريا؛ ذا إيجابيات عديدة في شتى المجالات، حيث تزامن ذلك مع بروز وانعكاس مظاهر الاستقرار والأمن والهدوء. الأمر الذي ولَّد حركة تعمير قوامها ممارسة الناس وتوجههم نحو العديد من الأنشطة الاقتصادية، خاصة ما توفر لبعض المدن من أرضية خصبة غنية بالمؤهلات الطبيعية والبشرية.

ومن هنا يهدف هذا المقال إلى بيان أثر الموقع والمسالك التجارية على تطور وازدهار بعض مدن المغرب الأوسط، وذلك اعتمادا على الجغرافيا الوصفية باعتبار أنها تحوي مادة هامة تصف مدن وأقاليم المغرب الأوسط.

إن الحديث عن طبنة هو حديث عن دور المدينة في النشاط التجاري في المغرب الأوسط، بفضل ما توفر لها من مؤهلات طبيعية ارتقت إلى أن يكون لها دور في النشاط التجاري في المغرب الأوسط في العصر الوسيط.

الملخص باللغة الأجنبية:

This article aims at explaining the impact of the site and commercial routes on the development and prosperity of some of the cities of the Middle Maghreb, based on descriptive geography as it contains an important material

describing the cities and territories of the Middle Maghreb. Where the attention of historians to address the issues of major cities, and the focus of attention is not related to small cities, but focuses on the affairs of major cities, The talk about medicine is a talk about the role of the city in business activity in the Middle Morocco, thanks to the natural qualifications provided to have a role in the business activity in the Middle East in the Middle Ages.

الكلمات المفتاحية:

المدينة، التجارة، الموقع، النشاط الاقتصادي، المغرب الأوسط، المسالك التجارية.

المقدمة:

لعبت بعض مدن المغرب الأوسط دورا مهما في النشاط التجاري، خاصة تلك التي تتمتع بمؤهلات طبيعية من إمكانات طبيعية وموقع استراتيجي إضافة إلى العنصر البشري الذي عمَّر المنطقة .

تلك المدن تحولت بفضل موقعها إلى مراكز هامة في المنطقة، وانخرطت في الحركة التجارية داخل المغرب الأوسط بل تعدت ذلك.

وبما أن معظم الدراسات غظت الطرف عن بعض المدن الصغيرة أو التي لا ترتقي عن كونها قرى كبيرة، وأخرى اهتمت بجوانب سياسية وعسكرية، فإن هذه الدراسة تحاول كشف وبيان مساهمة مدينة طبنة، وموقعها من حركة النشاط التجاري في المغرب الأوسط.

الإشكالية:

ماهي المؤهلات التي أدت إلى ازدهار النشاط التجاري في مدينة طبنة في العصر الوسيط؟

هل ساهمت هذه الأخيرة في ازدهار المدينة؟ وإلى أي حد تمكنت طبنة من الصمود الحضاري أمام بعض المتغيرات السياسية والعسكرية؟

ما مدى تأثير النشاط التجاري على تطور المدينة؟

ماذا قدمت طبنة كمدينة للحياة الاقتصادية والحضارية في المغرب الأوسط؟

1- النشاط الفلاحي وحيوية الإنتاج:

✓ النشاط الزراعي:

وصف بعض الجغرافيين طبنة "بالمدينة العظمى"[1]، ولا شك أن هذا الوصف له ما يقوم دليلا عليه. فهو تعبير عن مؤهلات المدينة الطبيعية والاقتصادية والعمرانية.

ومن دون شك شكل المجال الريفي لمدينة طبنة دورا هاما باعتباره القاعدة المادية لأي ازدهار حضاري وعمراني بما يوفره من إمكانات وفضاءات .

إن الإنتاج الزراعي ووفرته يعود بالدرجة الأولى إلى الموقع الجغرافي للمدينة حيث يكتسي هذا الأخير أهمية عظمى، إذ يخضع اختيار الموضع إلى عدة عوامل أساسية أهمها توفر الماء، جودة الهواء، توفر المراعي وخصوبة التربة[2].

وإذا ما نظرنا إلى طبيعة المجال الذي قامت عليه المدينة، فهو مجال يغلب عليه الطابع الصحراوي، إذ تقع طبنة بين الزاب والحضنة حيث يعدها الجغرافيون القدامى ضمن إقليم الزاب الواسع الامتداد ويطلقون عليها مدينة الزاب الكبرى، وهي أيضا مدينة شط الحضنة وفي منطقة الشطوط، ميزة التوسط هذه تنعكس

آثارها في المنطقة من حيث تلقي تأثيرات الشمال البحرية وتأثيرات الجنوب الصحراوية[3].

ولأن المدينة وبحكم موقعها المتميز بندرة الأمطار وقلة التهاطل اضطرت إلى العناية بمصادرها المائية المتوفرة بإقليمها حيث تنحصر طبنة بين وادي بريكة شمالا ونهر بيطام جنوبا، الذي يعد أهم مورد حيوي تعتمد عليه المدينة في أغلب أنشطتها الفلاحية.

وأصبحت المدينة بفضله :" حسنة كثيرة المياه والبساتين والزروع والقطن ولحنطة والشعير"[4].

وتميزت أغلب الأنشطة الزراعية بالسقي :" فأكثر غلاتهم السقي ويزرعون الكتان وجميع الحبوب فيها غزيرة كثيرة"[5].

أما البكري فينقل :" ولها بساتين يسيرة ملاصقة للربض .... واسم نهرها بيطام وإذا حمل سقى جميع بساتينها وفحوصها ويقول أهلها بيطام بيت الطعام لجودة زرعها"[6].

في حين يورد صاحب الاستبصار:" ولها بساتين كثيرة والنخل والثمار.. ولها نهر يشق غابتها وقد بني له صهريج كبير يقع فيه، وتسقى منه جميع بساتينها وأراضيها[7].

وهي أيضا مدينة الزاب حسنة كثيرة المياه والبساتين والزرع والقطن ولحنطة والشعير والتمر بها كثيرة الفواكه كذلك". كما كانت المدينة " وافرة الماشية من البقر والغنم وسائر الكراع والنعم"[8].

إن جل الجغرافيين يتفقون على تأكيد أن مدينة طبنة غنية بالمحاصيل غزيرة الخيرات مما يستشف منه استغلال جزء أو تحويله من تلك المحاصيل الزراعية إلى ميدان الحرف والصناعة

✓ **علاقة المدينة بمحيطها الريفي:**

مثلت مدينة طبنة في العصر الوسيط أنموذجا للمدينة التي احتضنت فضاءها الريفي بكل مؤهلاته، والمتطورة انطلاقا من مجالها الطبيعي والعمراني والذي ارتكزت عليه .

فتبعا للمصادر الجغرافية التي أوردت المدينة كثيرا ما وصفتها بالكبيرة، أو العظمى أو العظيمة[9].

يورد البكري شهادة من القرن الخامس الهجري عن المدينة أن" بها قصر وأرباض[10]" حيث شهدت هذه الأخيرة توسع القصر والأرباض التي ظهرت خارج الأسوار[11].

إن امتداد المدينة وانفتاحها مؤشر يبرهن على الازدهار والثراء ، هذا الأخير الذي يمكن رده إلى القاعدة التي تقوم عليها اقتصاديات أي مدينة من مدن المغرب في العصر الوسيط والتي ترتكز على محيطها الريفي الهام ولا يمكنها أن تزدهر تتطور وتستمر بمعزل عن المحيط الريفي. إذا علاقة المدينة بمجالها الريفي العام هي علاقة جدلية وتكاملية. فكلاهما يستند إلى الآخر؛ فالمدينة تساهم في اتساع المجال المخصص للزراعة ويعد ذلك مؤشرا على أهمية الناحية المحيطة بالمدينة وحيوية الظاهرة الحضرية من جهة أخرى[12].

تتجسد هذه المواصفات بصفة واضحة في مدينة طبنة إذ أحيطت بحزام من البساتين، وهنا يبرز العامل البشري الذي يتفاعل مع معطيات الطبيعة إذ بادر

ساطنة المنطقة بالجانب الزراعي واهتم أهلها بتخصيص مجالات ممتدة للبساتين وامتدت الفحوص[13] حول وادي بيطام مثلت حزاما ريفيا ثانيا محيطا بالمدينة.

إن الحديث عن أهمية الناحية المحيطة بالمدينة والتي تعتبر قاعدة اقتصادية تزود المدينة وهي عامل من عوامل ازدهارها؛ هو حديث عن تلك العلاقة بينهما والتي تتجسد في أبرز صورة لها في السوق. حيث يعد هذا الأخير الصورة الجلية والانعكاس الملموس والواضح لمدى التأثر والتأثير بين المجالين الريفي والمديني.

إذا المجال الريفي يوفر موارد السوق وحاجات المدينة من محاصيل وغيرها، والمدينة تستهلك الفائض، والسوق هو المكان المناسب لتجسد العلاقة

بين المدينة ومحيطها الريفي، ولا يمكن لأي مدينة من مدن المغرب الأوسط أن تزدهر وتتطور دون وجود علاقة تواصل واتصال مع محيطها الريفي .

فقد ورد أن للمدينة " اسواق كثيرة". حيث يساهم هذه الأخير في تحقيق الاكتفاء الذاتي وتوسع المجال الزراعي خارج محيط المدينة بنشأة زراعات ومساحات جديدة .

ومما يؤكد ارتباط المدينة بالمجال الريفي التابع لها كثرة الأبواب فيها وكما هو معلوم فقد اقترن تطور الأبواب والأسوار بمدى الامتداد العمراني للمدينة . مما يجعل منها منطقة مفتوحة على مجالات واسعة تؤدي إلى اتجاهات مختلفة.

✓ الحرف والصناعات في طبنة :

أشار عبد الرحمن بن خلدون إلى أن العمران البدوي لا يحتاج من الصنائع إلا البسيط خاصة المستعمل في الضروريات كالنجارة والحدادة وكذلك الأمصار الصغيرة تكون في الصنائع ناقصة ولا يوجد فيها الحرف والصناعات[14] :

أشار عبد الرحمن بن خلدون إلى أن العمران البدوي لا يحتاج من الصنائع إلا البسيط خاصة المستعمل في الضروريات كالنجارة والحدادة وكذلك الأمصار الصغيرة تكون في الصنائع ناقصة ولا يوجد فيها إلا البسيط.

بخلاف المجتمع الحضري الذي تتسع دائرة نشاطه الصناعي " فإذا زخر بحر العمران وطلبت فيه الكماليات كان من جملتها التأنق في الصنائع واستجادتها فكملت بجميع متمماتها وتزايدت صنائع أخرى معها مما تدعو إليه عوائد الترف وأحواله من خزار ودباغ.."[15].

تتطور الصناعة والحرف في أي مدينة وتخضع لطبيعة المجتمع وحاجاته ودرجة تحضره ، وأيضا بسبب وفرة المحاصيل الزراعية والإنتاج الحيواني، وما يمكن ملاحظته أن هذا النشاط في المغرب الأوسط بقي يمارس على مستوى البيوت أو المحال التجارية والدكاكين [16].

وبفضل ما توفر لمدينة طبنة من اتساع ساهم في تطور بعض الحرف والصناعات إضافة إلى ما تنتجه من محاصيل زراعية وحيوانية. وهي في عمومها لا تختلف عن تلك الصنائع والحرف الموجودة في مدن المغرب الأوسط الأخرى.

إن الحرف المشار إليها هي من قبيل المتعلقة بالإنتاج الزراعي وتلبي المتطلبات اليومية للسكان، من طعام ولباس وفراش ، ومنها أيضا الصباغة والطحن ونجارة الخشب..[17]

صناعة المنسوجات والملبوسات:

ومن هذه المواد الأولية خاصة ما تعلق بصوف الأغنام التي كانت موجهة للحياكة ووبر الجمل الذي تصنع منه الألبسة الخاصة، وشعر الماعز الذي يستخدم في نسج الخيام[18].

وهي تقوم على الحبوب المتوفرة وتحويلها وما ينجم عنها، وبما أن الجغرافيين قد أشادوا بمنتوجي الكتان والقطن في طبنة فإنه لا يستبعد أن تكون هناك صناعة قائمة عليها ممثلة في إنتاج المنسوجات الصوفية، ولأنها تحوي سائر الكراع والنعم فقد وفرت لها الجلود والصوف والتي تعد مصدر الصناعة النسيجية وإنتاج الملابس والخيام والأغطية وما اشتهر به البربر من ملبوسات كارتداء البرانس .

كما صنعت مما تنتجه الحيوانات من صوف ووبر الأردية المعصفرة والقلانس والقمصان والسراويل والمناديل .

وإلى جانب توفر المواد الخام لممارسة هذه الحرف والصنائع كان لزاما توفر اليد العاملة والخبرات اللازمة وقد ساهمت المرأة إلى حد كبير في الممارسة والإنتاج.

وارتبطت صناعة نسيج القطن بالموقع الذي يزرع فيها، فطبنة هي مدينة القطن في المغرب الأوسط، مما ينجم عنه صناعة لمختلف الأقمشة واستعمال الأصبغة كالزعفران والنيلة إضافة إلى الكتان .

ونظرا لأهمية الغذاء وتوفيره في حياة الإنسان وجب على السكان ابتكار حلول وأساليب تساعدهم على استغلال الإنتاج النباتي والحيواني وساعدت بذلك عملية تنويع وتوسيع دائرة الإنتاج الغذائي إلى الاهتمام بمحاصيل زراعية صناعية وبذلك برزت بعض الحرف المرتبطة بمحاصيل متنوعة وكثيرة.

الحرف ذات الصلة بالمأكل:

تعتبر حرفة الطحن الدقيق وتحويله إلى خبز من الصناعات والحرف الغذائية الأساسية، لأنها تستهدف المادة الأولية المتوفرة بكثرة في المدينة وتحولها إلى مادة جاهزة للاستعمال وكثرت الأرحاء والمطاحن[19] في كامل أرجاء المغرب الأوسط بصفة عامة وفي مدينة طبنة بصفة خاصة .

فوجدت الأرحاء والمطاحن على حواف الأنهار وبالضرورة ستظهر الأفران. لكن الملاحظ أن المصادر لم تذكر وجود ذلك في طبنة

كما يمكن الحديث عن وجود حرف تهتم بمنتجات الحيوان من ألبان وتحويلها كاستخراج السمن، لأن المدينة احتوت على ثروة حيوانية هامة، وعجت بساتينها وفحوصها بمختلف أنواع الأشجار ذات الفواكه المتنوعة فلجأ السكان إلى تجفيف بعضها لاستهلاكه في غير فصله كالتين والعنب مثلا، فقد دعت الحاجة إلى ذلك من أجل الحفاظ على ديموم الغذاء وساهم من جهة اخرى في تنشيط الحركة الصناعية والحرفية[20].

2- مرتكزات النشاط التجاري:

نتج عن الإنتاج الفلاحي بشقيه الزراعي والحيواني و النشاط الحرفي ضرورة تسويقه والبحث عن تصريف تلك المنتجات، والسوق مركز احتكاك وتبادل دعت إليها الضرورة الاقتصادية والتطور في الإنتاج والاستهلاك، وطبنة استجابت لهذه الضرورة لأنها ارتقت بمؤهلاتها ومحاصيلها ومجالها الطبيعي إلى ذلك.

✓ الأسواق:

و بتعبير البكري الذي ذكر أن بالمدينة :" سماط يشق المدينة من الباب إلى الباب.. سور مضروب على فحص فسيح ... وبها أسواق كثيرة غير السماط المذكور"[21].

ومن دون شك فإن تعدد السلع وكثرتها مدعاة إلى تعدد الأسواق فقد أورد الونشريسي ما يدل على أن كل سوق من أسواق المغرب يختص بنوع معين من السلع"[22].

ويشير الإدريسي في وصفه لمدينة طبنة :" بها صنائع وتجارات وأموال ولأهلها متصرفة في ضروب من التجارات"[23].

تشكل المنتجات الزراعية والحيوانية الدعامة الأساسية الت تقوم عليها السلع التي تعرض في اسواق طبنة، إضافة إلى ما ينتج من مواد حرفية وأخرى مصنعة داخل المدينة أو في محيطها الريفي.

فابن حوقل في القرن الرابع الهجري ينقل لنا:" وجميع الحبوب فها غزيرة كثيرة" وهي العبارة نفسها التي يوردها العقوبي، وبالتركيز على هذه العبارة قد تحمل دلالة الكثرة والغزارة تحقيق الاكتفاء الذاتي وتوجيه الفائض من المنتجات إلى السوق.

توفر الثروة الحيوانية بالمدينة أضفى حيوية على رواج هذا النوع من السلع ممثلا في اللحوم والألبان فقد سجل لنا البكري رخصا في سعر اللحوم وكثرتها في المسيلة[24] القريبة من طبنة.

كما شكلت الحيوانات سلعا رائجة داخل أسواق المدينة نظرا للحاجة إلى استعمالها اليومي فقد ذكر ابن حوقل أن مدينة طبنة" وافرة الماشية من البقر والغنم وسائر الكراع والنعم"[25]. هذه الأخيرة يستفاد منها في الحرث والحمل والركوب والتنقل كما توفر أصوافها واوبارها وجلودها مادة خامة لحرف وصنائع أخرى.

ولأن السوق في مدن المغرب الأوسط بصفة عامة تشكل انعكاسا للأنشطة الاقتصادية الممارسة من طرف السكان سواء في الحواضر والمدن أو خارج الأسوار في المجالات الريفية والبدوية التي تشكل فضاءا مكملا للمدينة وأحيانا مناوئا لها. حيث كانت هذه الأسواق كثرة على عدد أحياء المدينة[26].

فالتباين الحاصل بين الريف والمدينة ألقى بظله على الإنتاج وبرزت انعكاساته جلية في اقتناء أهل الريف لما ينتج في المدينة ومن جهة أخرى لم تستغن لمدينة عن خدمات المجال الريفي.

وأسواق المدينة هي مركز الاحتكاك والقطب الذي يجمع القبائل المحيطة بالمدينة[27].

✓ **المنتجات والسلع:**

إن شهرة مدينة طبنة في الإنتاج الزراعي والحيواني حيث قامت شهرتها على المجال الزراعي بمنتوجاتها المتنوعة وفي صدارتها القطن والشعير والحنطة، ولهذا لا غرابة إن ذكرها كل الرحالة والجغرافيين منذ عهد اليعقوبي إلى عهد الإدريسي متفقين على أن مطبنة مدينة متطور ة العمران[28].

وما انبنى على ذلك الإنتاج من نشاط حرفي وصناعي وما تميز به هذا الإنتاج من الوفرة والغزارة والجودة في ضوء ما قدمته نصوص الجغرافيين بصفة خاصة والتي حققت من خلالها المدينة اكتفاءا ذاتيا أدى إلى توجيه بعض المحاصيل والمنتجات إلى الأقاليم والمدن المجاورة.

النصوص الجغرافية في عمومها لا تفرد صادرات طبنة إلى الأقاليم المجاورة بل تدرجها في غالبها ضمن صادرات مدن المغرب الأوسط وإنما يستشف ذلك من ثرائها بالمحاصيل وارتباطها بشبكة طرق ومسالك مهمة .

ولعل موقع المدينة جعل منها ترتقي إلى ذلك فأصبحت سوقا يقصدها التجار العابرين للمنطقة إذ كانت طبنة من الأهمية العظمى ما جعل البكري يصفها قائلا:" وليس من القيروان إلى سجلماسة مدينة أكبر منها"[29]. بفضل بساتينها وكثرة نخيلها"[30].

فهي تضاهي القيروان في إفريقية وفاس وسجلماسة في المغرب الأقصى[31]، وبهذا شكلت طبنة مركزا في الزاب الغربي حيث تضاهي بسكرة في الأهمية والشهرة[32] .

وفي إطار ما درج عليه الجغرافين في الإشادة عموما بما تصدره مدن المغرب الأوسط غلى الحواض والأقاليم الأخرى فقد ذكر الإدريسي أنه ليس في بلاد السودان شيئ من الفواكه إلا ما يجلب إليها من بلاد سجلماسة أو بلاد الزاب"[33].

وتعتبر بلاد الزاب من الأسواق المهمة لوقوعها على الطريق إلى القيروان، حيث يمكن التوجه إلى طبنة من بسكرة مباشرة إلى تهوذا[34]، ومن تهوذا يمكن الانتقال إلى مدينة باغاي التي تبعد عن بسكرة بأربعة أيام وهذا الطريق الذي يربط المدينتين يجتاز جبال الأوراس[35].

كما يظهر أن من الصادرات ما يأتي عن طريق بجاية إلى طبنة والذي يقدره الإدريسي بست مراحل [36].

وبحكم موقع طبنة بين حاضرتي تاهرت وفاس من جهة أخرى القيروان إضافة إلى تعاملها مع بجاية كمدينة ساحلية وجنوبا عبر بسكرة ووارجلان فإن المدينة كانت على انفتاح وذات منافذ ومسالك عديدة.

✓ **المسالك التجارية:**

إن دراسة شبكة الطرق التي تمر بمدينة طبنة في العصر الوسيط تكشف عن أهمية المسالك التي تربط المدينة بمحيطها، انطلاقا من الموقع الذي احتلته المدينة وتدعم عبر فترات تاريخية تاريخية ظهور مسالك المدينة ليست وليدة الفترة الوسيطة على أن دراسة شبكة المسالك المرتبطة بمدينة طبنة تمثل في جزء منها موروثا قديما،

والتي أنشأها الرومان ذات أهداف أمنية بالأساس وهي جزء من الليمس الروماني[37].

بعض تلك الطرق استمر نشاطها في الفترة الإسلامية واكتفى الجغرافيون بتقديم معلومات عن المنازل والقرى وبعض المواضع والمراحل وتقدير المسافات بينها.

كانت طبنة متصلة بمدن إقليم الزاب والأوراس حيث ارتبطت بمدينة نقاوس شمالا على بعد مرحلتين[38].

وطريق في اتجاه مدينة بجاية الساحلية حيث شكلت بجاية منفذا للسلع المدن الداخلية نحو السواحل من أجل تصديرها كما لعبت دورا في إيراد السلع المستوردة الى المدن الداخلية وكانت بجاية تبعد عن طبنة مسافة سبع مراحل[39].

مسلك آخر يربطها بالمسيلة وبينهما مرحلتان [40]، ويمر عبر مقرة وبين مقرة وطبنة مرحلة واحدة[41].

كما شكلت طبنة بموقعها وسط مدن الزاب والحضنة والأوراس محور المسالك التجارية، حيث اخترقتها طرق رئيسية يسمى كل منها سماط تشقها جداول الماء[42]. فارتبطت بمدينة باغاي[43]، على طريق تجاري حدد بثلاث مراحل وشرقا إلى دار ملول[44].

على أن هذه المسالك التي ربطت طبنة بالمدن والمراكز القريبة منها يسرت لها سبل الاتصال بحواضر المغرب الأوسط لكبرى ذات النشاط التجاري الرائج من ذلك أن المسلك الذي يربطها بالمسيلة على بعد مرحلتين جعلها على صلة بمدينة تاهرت عبر مراكز ومنازل عديدة كمدينة هاز وسوق كرام[45] .

ومن جهة أخرى اربتطت عبر مسالك مباشرة بأهم الحواضر في المغرب الإسلامي فمن جهة الشرق الطريق الرابط بين القيروان وطبنة والذي أتى على ذكره اليعقوبي

ميزة هذ المسلك أنه يشمل عدة محطات مراكز أهمها: سبيبة[46] ومجانة[47] مسكيانة [48]و باغاي، وتبعد طبنة عن القيروان بعشر مراحل[49].

كما كان هناك مسلك صحراوي يربط طبنة بالقيروان عبر بسكرة[50] وقفصة وقسطيليه[51] .

أما من جهة الغرب فكان هناك مسلك تجاري يربط طبنة بالمسيلة وتاهرت فتلمسان وفاس في المغرب الأقصى [52].

وبهذا تكون مدينة طبنة قد وقعت على مسلك تجاري هام ، شمل ربطها بالمدن والحواضر الداخلية كبسكرة والمسيلة وتاهرت وبجاية في الساحل. و على صعيد آخر بالحواضر الخارجية كالقيروان وفاس.

مدينة طبنة ضمن خارطة المسالك التجارية للمغرب الأوسط في القرن الثالث الهجري:

نقلا عن: عشي علي: التوجه البحري للمغرب الأوسط وأثره في طرق التجارة والمواصلات (2-10هـ / 8-16م)، دكتوراه، جامعة باتنة، 2017/2016م، ص125.

3-مدينة طبنة من الريادة إلى التراجع:

إن التطور الذي بلغته المدينة والمكان المهم التي حظيت بها طبنة لن تدوم طويلا ففي نهاية القرن الثالث الهجري ومطلع الرابع تراجع دور المدينة الريادي،

فابن حوقل يسجل لنا مشهدا من الفتن والحروب التي عصفت بذلك التطور والازدهار فيقول معبرا عن التردي بعدما كانت مدينة عظيمة :" حدث بينهم البغي والحسد إلى أن أهلك الله بعضهم ببعض وأتى على نعمهم فصاروا بعد السعة والدعة غلى الضيق والذلة والصغار والشتات والقلة، مشردين في البلاد، مطرحين في كل جبل وواد وبقيتهم صالحة"[53]. ولعل ذلك نتيجة التركيبة السكانية القبلية [54].

كما تكون المدينة قد شهدت تراجعا فالبكري يرى أن بساتين المدينة تراجعت ويذكر:" يشقها جداول الماء العذب...ولها بساتين يسيرة ملاصقة للربض"[55].

وهنا لا يمكن إغفال أو تجاهل عامل مهم وهو ثورة أبي يزيد صاحب الحمار، والتي كانت أغلب أراضي المغرب الأوسط مسرحا لها[56]، فتكون بذلك طبنة قد نالها ما نال بعض مدن المغرب الأوسط من الخراب والتراجع[57].

ومرة أخرى تعود طبنة للظهور من خلال نص الإدريسي حيث يذكر:"كثيرة المياه والبساتين والزروع والقطن والحنطة."[58].

وما يفهم من خلال أوصاف الجغرافيين أن المدينة تأثرت بانتقال مركز الزاب إلى مدينة المسيلة[59] التي خطفت الازدهار وحيوية النشاط التجاري من طبنة

الخاتمة:

إن الحديث عن النشاط التجاري لمدينة طبنة في العصر الوسيط كأنموذج، لن يتم بمعزل عن بقية الأنشطة الاقتصادية الأخرى، فلقد ارتبط مصير النشاط التجاري بالفعل والمحيط الفلاحي تجاذبا وتفاعلا وتكاملا .

وفي طبنة كان للعامل الطبيعي الأثر الكبير في الاستقرار مما وفره من عوامل وأسباب وهي أيضا مجال واسع للتنقل سمحت شبكة المسالك التي اخترقت المدينة من تعميرها .

وساهم النشاط التجاري في رقي المدينة واتساع أرجائها وتطور عمرانها، وانفتاحها على المدن المجاورة لها في المغرب الأوسط وخارجه إذ ارتبطت بالقيروان وفاس .

استمرارية النشاط التجاري والازدهار الذي بلغته طبنة كان محدود بحيث لم تلبث أن ترجع دورها، وظهرت في الأفق حاضرة جديدة كان نموها التجاري على حساب طبنة.

الهوامش:

[1] اليعقوبي: البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت، ص190.

[2] ركز المفكرون الإسلاميون في أبحاثهم عن الشروط التي يجب مراعاتها عند تخطيط المدينة فابن أبي الربيع حدد شروطا هامة منها:

سعة المياه المستعذبة كأن تقوم المدينة على نهر جارأو وفرة الينابيع من عيون مستعذبة.

إمكان الميرة المستعذبة بأن تكون لها أرباض توفر لها الميرة وأراضي زراعية تضمن لها الأمن الغذائي أوقات السلم أو الحرب.

اعتدال المكان وجودة الهواء والقرب من المراعي والاحتطاب وذلك من أجل توفير الكلأ للمواشي، وتوفير الحطب للطهي، وغيرها من العوامل والتي نرى أن مدينة طبنة تجسدت فيها هذه الشروط بوضوح. ابن أبي الربيع : سلوك المالك في تدبير الممالك، تحقيق عارف أحمد عبد الغني، دار كنانة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، 1996م، ص106.

[3] موسى لقبال: "طبنة مدينة الزاب والأوراس في العصر الوسيط"، مجلة الأصالة، ع60-61، 1978، ص83-102، ص83.

[4] الإدريسي: المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، مطبعة بريل، 1863. ص92.

[5] ابن حوقل: **صورة الأرض**، بيروت: دار مكتبة الحياة، (د.ت).صورة الارض، ص85.

[6] البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، ص50-51.

[7] مؤلف مجهول: كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، ص172.

[8] ابن حوقل: صورة الأرض، ص85-88.

[9] اليعقوبي: البلدان، ص190 ، ابن حوقل، ص85، مؤلف مجهول: الاستبصار، ص172، الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار،ط2، تحقيق إحسان عباس، ص387.

[10] البكري: المغرب، ص50-51.

[11] ينقل البكري في مؤلفه:" إن قصر طبنة قديم أولي كبير جليل ، مبني بالصخر الضخم، وهو ملاصق لسور المدينة من جهة القبلة. البكري: المغرب، ص50.

وكان للمدينة عدة أبواب هي:

من الشرق باب خاقان مبني بالحجر عليه باب حديد ، ومن الغرب باب الفتح وهو باب حديد، من الجنوب بابان باب تهودا، عليه باب حديد، وهو سري والباب الجديد، أما من الشمال فنجد باب كتامة .

[12] نور الدين قراوي: طبنة ودورها الحضاري، ص180.

[13] الفحص هو عبارة عن المجال الزراعي يشمل اضافة الى زراعة الحبوب الأشجار والمغروسات وعادة ما تحيط به حدود طبيعية مثل الأنهار ن حسن محمد حسن: الجغرافية التاريخية لإفريقية من القرن الأول إلى القرن التاسع 7-15م، فصل في تاريخ المواقع والمسالك والمجالات ن دار الكتاب الجديد المتحدة، طرابلس، 2004، ص2013.

هذا ما ينطبق على مدينة طبنة الواقعة بين وادي بريكة شمالا ونهر بيطام جنوبا ، وأحيطت المدينة بحزام زراعي يزودها بالاحتياجات الزراعية من محاصيل كما أن المدينة لن تستغني عن اليد العاملة التي يوفرها المحيط الريفي والذي يتدفق على المدينة ويساهم في داخلها.

[14] يقصد بالصناعات في هذا الموضوع ما يتعلق بتصنيع الإنتاج الزراعي وما يتصل به من استنباط المعادن تصنيعها، وأيضا وما يتعلق به من الحرف المتداولة عند أهل المغرب". عمر بلبشير، مساهمة في دراسة النشاط الصناعي والحرفي في المغرب الإسلامي من خلال النصوص النوازلية والجغرافية،، مجلة الناصرية، مخبر البحوث الاجتماعية والتاريخية، عدد 4، جوان 2013، ص 285-310ص288.

[15] ابن خلدون: المقدمة. دار ابن الهيثم، ص97، ص304.

[16] روبي مصدق: الحرف والصنائع في المغرب الأوسط على عهد الممالك الوطنية، مخبر البحوث الاجتماعية والتاريخية، ع4، جوان 201، ص137-148، ص139.

[17] عمر بلبشير: مساهمة في دراسة النشاط الصناعي: ص294.

[18] عمر بلبشير، مساهمة في دراسة النشاط الصناعي ص265.

[19] يراجع :البكري: المغرب، ص65، 90، المقدسي: ص228، ابن حوقل، ص88-89، الإدريسي ص82-84.

[20] مليكة عدالة: الصناعة الغذائية في المغرب الأوسط، مجلة الناصرية، مخبر البحوث الاجتماعية والتاريخية، ع4، جوان 2013، ص361-368، ص366.

[21] البكري: المغرب، ص 147.

[22] الونشريسي: **المعيار العرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب**، أشرف على تحقيقه: محمد حجي، بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1983. ج3، ص157.

[23] الإدريسي: صفة المغرب، ص92.

[24] البكري: المغرب، ص59.

[25] ابن حوقل: صورة الارض، ص85-88.

[26] موسى لقبال: طبنة مدينة الزاب، ص98.

[27] ابن الصغير المالكي: تاريخ الأئمة الرستميين، ص337.

[28] الطيب بوسعد: دور علماء طبنة في العصور الإسلامية، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، ع3، 2008، ص1-12، ص1.

[29] البكري: المغرب، ص51.

[30] ابن حوقل: صورة الارض، ص85، مؤلف مجهول: الاستبصار، ص172.

[31] موسى لقبال: طبنة مدين الزاب، صص83.

[32] ناصر الدين سعيدوني: الإنسان الأوراسي وبيئته الخاصة دراسة في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لمدين الأوراس قبل وأثناء العهد العثماني، الأصالة، عدد 60-61، ص115-154، ص126.

[33] الإدريسي: صفة المغرب، ص3.

[34] مدينة أولية من بلاد الاب قرب بسكرة لها نهر كبير يتصب إليها من جبل أوراس وهي كثيرة النخل والبساتين والزرع وجميع الثمار . مؤلف مجهول: الاستبصار، ص174. البكري: المغرب، ص72. الحميري: الروض المعطار، ص142.

اكتسبت مدينة تهوذا أهمية تاريخية فهي المدينة التي قصدها عقبة بن نافع قبيل استشهاده، أما عن دورها الاستراتيجي فيعود إلى موقعها بين الاب والأوراس حيث احتلت مكانة على طول المسالك التجارية التي تربط القيروان ببعض مدن المغرب الأوسط كمدينة وهران.

وصف البكري مدينة تهوذا بأموالها الكثيرة حيث تحتوي على فنادق كبار كانت بالأخص مثابة سكن التجار وهذا باعتبارها معبرا ونقطة مهمة للقوافل التجارية ، صلاح الدين هدوش: المدينة ببلاد الزاب من خلال المصادر العربية من القرن 5هـ-11م/ 8هـ-14م، مجلة علوم الإنسان والمجتمع، ع14، مارس 2015، ص122.

الحميري: الروض المعطار، ص142. البكري: ص72، الاستبصار: ص174.

[35] صلاح الدين هدوش: المدينة ببلاد الزاب ،ص122.

[36] الإدريسي: صفة المغرب، ص

[37] عز الدين بويحياوي: تأثير الطرق في إنشاء المدن في تلمغرب الأوسط، المجلة المغاربية للدراسات الاجتماعية والتاريخية، مخبر الجزائر تاريخ ومجتمع،، جامعة سيدي بلعباس، ديسمبر، 2013، ع7، ص45-61، ص48.

[38] الإدريسي: صفة المغرب، ص91

[39] الإدريسي: صفة المغرب، ص 91.

[40] الإدريسي: المغرب وأرض السودان، ص92.

[41] المصدر نفسه، ص92.

[42] موسى لقبال: طبنة مدينة الزاب، ص98.

[43] ذكرها بلفظ باغاية البكري ص50، مؤلف مجهول: الاستبصار، ص163، أما ابن حوقل فأوردها بلفظ باغاي، ص84- 85، ويذكر من مصادرها المائية "أن شرب أهلها من ماء واد جار يأتيهم من القبلة مع آبار عظيمة ، الماحظ أن البكري يذكر أنها ذات أنهار ويؤيده في ذلك صاحب الاستبصار :" أن لها أنهار عامرة وعيون ومزارع ". وباغاي هي مدينة خنشلة حاليا

[44] وصف الإدريسي دار ملول قائلا:"كانت فيما سبق من الدهر مدينة عامرة وأسواق قائمة ولها مزارع وغلات جمة وفيها حصن مطل فيه على مرصد من البلاد ينظر إلى مجال العرب في بلادهم ..وشربهم من عيون جارية، بينها وبين نقاوس ثلاث مراحل، الإدريسي:

صفة المغرب، ص93. وفي ظل السيادة الفاطمية على المغرب الأوسط ستصبح دار ملول "منزلا يجتازه المجتازون، غير أن المدينة لم تحافظ على طويلا على ازدهارها حيث ما لبثت أن تحولت إلى خرائب . ناصر الدين سعيدون: الإنسان الأوراسي وبيئته الخاصة، ص125.

[45] سوق كرام:

[46] تذكر سبيبة كثيرا لدى الجغرافيين الذين تعرضوا لمسالك التجارة التي تنطلق من القيروان باتجاه المغرب الأوسط ، فهي إحدى مراحل الطريق ذات أنهار ومياه سائحة ولا شك ان لهذه الأخيرة دور في امتداد المسالك واستمراريتها حيث لم تكن في إفريقية منطقة أخصب منها. مؤلف مجهول: الاستبصار، ص162.

[47] مدينة ذات سور وطابية تشتهر مجانة بالزعفران والزرع وبها المعادن من الحديد والفضة وبذلك اشتهرت على طول المسلك القادم من القيروان والرابط لعديد مدن المغرب الأوسط، كما عرفت بمجانة المطاحن لشهرتها بالحجارة المجلوبة للمطاحن إضافة إلى غزارة مياهها ولها أسواق صالحة وهي نموذج لتلك القرى التي ساهم موقعها وثرواتها ووقوعها على مسالك التجارة في ازدهارها . ابن حوقل: صورة الأرض، ص84، البكري: المغرب، ص50، مؤلف مجهول: الاستبصار، ص162.

[48] قرية عامرة قديمة أزلية بها زروع ومكاسب ويون، ولها أسواق ممتدة ، احتلت مسكيانة موقعا مميزا على المسلك التجاري الرابط بين المغرب الأوسط والقيروان، الإدريسي: ص119.

[49] اليعقوبي: البلدان، ص 120.

[50] ذكر ابن حوقل أن المسافة بين بسكرة وطبنة مرحلتان، ابن حوقل: صورة الأرض، ص84.

[51] اليعقوبي: البلدان، ص 119

[52] ابن حوقل: صور الأرض، ص 84، البكري: المغرب، ص87-88.

[53] ابن حوقل: صورة الأرض، ص85.

[55] البكري: المغرب، ص50-51.

[56] الطاهر طويل: المدينة الإسلامية وتطورها في المغرب الأوسط من النصف الثاني للقرن الهجري الأول إلى القرن الهجري الخامس، ط1،2001، تلمسان عاصمة الثقافة، ص 131.

[57] لقد تأثرت كامل المنطقة وخاصة مدن الحضنة والزاب بالحروب القبلية والزحوف المستمرة فخرب مدينة طبنة أكبر مدن الحضنة وثالثة المدن الكبرى في المغرب الإسلامي، واختفت إلى الأبد في القران السادس الهجري الثاني عشر للميلاد. ولم يبق إلا آثارها. موسى لقبال: طبنة مدينة الزاب، ص 92.

[58] الإدريسي، صفة المغرب، ص90

[59] الطاهر طويل: المدينة الإسلامية، ص131.